الأدب عين رائية تنقذ الفرد من الجماعة

دوريس ليسنج في «سجون نختار أن نحيا فيها» تحاول تحرير العقل الفردي

تحرير العقل من مركب الجماعة (لوحة للفنانة نور بهجت)

ما زال التساؤل القديم عن أهمية وجدوى الأدب في الحياة البشرية ساريا؛ هل يستطيع الأدب أن يغيّر نظرتنا إلى الواقع الذي نحيا فيه، أو حتى يجمّله كي نتكيّف معه للعيش فيه، ونتواءم مع أنساقه؟ وقد قدّم كثيرون إجابات متعدّدة ومغايرة إلى حدّ الاختلاف.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

تأتي الأديبة البريطانية دوريس ليسنج (1919 – 2013) الحاصلة على جائزة نوبل في الآداب (2007)، في كتابها الصادرة ترجمته حديثا بتوقيع سهير صبري بعنوان "سجون نختار أن نحيا فيها" لتقدم لنا وظيفة مهمّة للأدب تتمثّل في اعتبار الأدب بمثابة "عين أخرى" تساعدنا في الحكم على أنفسنا.

اللافت أن الأديبة البريطانية في كتابها، الصادر عن دار «العين»، بالاشتراك مع المركز القومي للترجمة في مصر 2019، وهي تقدّم قراءة ثقافية لأحداث الواقع، قدمت لنا وظيفة ثانية للأدب تتمثّل في تفسير الظوهر.

الولاءات العمياء

على مدار خمس مقالات تدمج بين الذاتي والموضوعي، استطاعت الكاتبة أن تقدّم لنا تفسيرات متعدّدة لأحداث ووقائع مرّت بها، لتقدم خبرة حياتية من منظور سوسيوثقافي عن واقع سياسي واجتماعي مضطرب، تماهت فيه حدود الفرد مع حدود الجماعة، وصار عقل الفرد تابعا (مغيبا) أو أسيرا لفكر عقل الجماعة، حاملا لأفكارها.

> من الأدب والتاريخ يمكن أن يتعلم المرء كيف يكون مواطنا وإنسانا وكيف ننظر إلى أنفسنا وإلى المجتمع

هذه الخبرة في حقيقة الأمر تنبع من مثقف عضوي فاعل بتعبير غرامشي، يتفاعل مع واقعه لا ينعزل عنه في صومعته، بل ينخرط في معتركه. فتحذّر من وقع العواطف الاجتماعية وتأثير السياقات الاجتماعية علينا، التي من الصعب أن نفصل أنفسنا عنها.

عبر تجربة شخصية متمثلة في قصة كتابها "جين سومرز" وقد وضعت عليه اسما رمزيا، وعندما عرضته على الناشرين قوبل بالرفض، ثم أعلنت عن لعبتها وخرج الكتاب تحت اسم "مذكرات جين سومرز"، عبر هذه التجربة تنقل دوريس أثر السّير في ركب الجماعة كقطيع. فالقاعدة تقول "أتبع قائدي، الجميع يقولون الشيء عينه في الوقت عينه، كما يقول العقل الجمعي".

قلة فقط من الناس هم من يتبعون عقولهم وإرادتهم في قراراتهم. وهذا ما يقودنا إلى الإذعان للسلطة وتنفيذ الأوامر مهما كانت وحشية وقاسية، كما حدث في تجربة ميلجرام، ومرجع هذا لأن الإذعان جزء من سلوك إنساني عام. ومع الأسف تستغل هذه الحكومات، فبدلا من سعي الحكومات لتحرير رعاياها من ضغوط وخطابات الحكومة والدولة، تعمل على العكس فتستند على الولاء المتقد والخضوع لضغوط الجماعة.

ومن هنا تُشدّد ليسنج على ضرورة التعليم، فالمعلومات هي التي ستطلق سراح البشر من الولاءات العمياء والانصياع للشعارات والوقوع تحت ضغط الجماعة، بل هي التي ستزيل غشاوة العين، كي لا يسير البشر في ركب الجماعة، ويؤمنون بكل ما يقال حتى الأخطاء.

وبمناسبة التعليم ترى أنّ الأدب والتاريخ هما فرعان عظيمان، من الممكن أن يتعلّم منهما المرء أن يكون مواطنا وإنسانا، كما يمكن أن نتعلّم منهما كيف ننظر إلى أنفسنا وإلى المجتمع الذي نحيا فيه بطريقة رزينة هادئة ناقدة.

الكتاب في أصله محاضرات ألقتها الكاتبة برعاية هيئة الإذاعة الكندية في عام 1985. ناقشت الروائية من خلالها مسألة في غاية الأهمية، تتمثل في سؤال: لماذا يهمين علينا ماضينا الهمجي، كأفراد وجماعات؟ لا يأتي هذا التساؤل قرين مصادفة، وإنما عن تجربة.

وتذكر مثلا حادثة الحكم على شجرة بالإعدام لأن الجنرال بيتان الذي وصف في وقت ما بأنّه "منقذ فرنسا" توارى خلفها ولحظتها كان قد وصف بـ"خائن فرنسا"، فأعدمت لتعاونها مع الخائن.

بناء على هاتين الحادثتين تقول ليسنج، إننا في زمن من المخيف فيه أن نكون أحياء، ففي كل مكان ثمة عداء وهمجية، ولكن دون مقدرة على كبح أي منهما. الحادثتان أشبه بتأكيد لسقوط الإنسان رغم تفوقه في الكثير من دروب الحياة في قبضة السلوك الحيواني، وفي المقابل ثمة تراخ لقوة العقل والرشد والتحضر، وبوصفها هي تحديدا فقد "أصبحنا منوَّمين مغناطيسيا".

وما يدعو إلى الأسف أنه بعد عدة آلاف من السنين من المعرفة التامة بالكيفية التي يتعين أن تدار بها الدولة، ما زلنا بعيدين جدا عن تحقيق ذلك.

ملاك الحقيقة الدامغة

تدين ليسنج فكرة الانقسامات في المجتمعات والتي تضع رؤانا وفق ثنائية الصواب والخطأ، وتقول إنّ هذا محض هراء، فالتطوّر على مرّ التاريخ يسير كله عبر التفاعل والتأثير المتبادل، بما في ذلك أشدّ الأفكار وأنماط السلوك جنوحا وعنفا، تغزل في النسيج العام للحياة الإنسانية كأحد خيوطها، فكما يقول هرقليطس الفيلسوف اليوناني القديم "كل الأشياء في تدفق دائم...".

الشيء المرعب هو تحوّل الصديق إلى عدو، من خلال تغذية وعي الفرد بوعي الجماعة التي ينتسب إليها، خاصّة إذا كان في مجتمع وثيق الصّلة ببعضه. فأي اختلاف مع أفكار هذا المجتمع عندئذ فأنت تخاطر بأن تتحوّل، في نظرهم، إلى تافه ومجرم وشرير، ومع الأسف هذه عملية آلية يتصرف الجميع هكذا. وإن كان ثمة رهان على الأقلية التي تنجو من هذا الفعل، لذا علينا كما توصي ليسنج، أن نعلّم أبناءنا تعزيز الأقلية وليس تبجيل الجماعة.

فهي تراهن على دور الفرد في تحدي منظومة الجماعة، وإحداث التأثير اللازم حتى لو وصف في عصره بالمهرطق أو المجرم الكبير، كما حدث مع إخناتون الذي تحدى معتقدات متوارثة غارقة في عبادة الموت، فوضع ديانة تقوم على الحب والنور، مقابل ديانة الموت، إلى أن جاءت اللحظة، حتى ولو متأخرة، التي يعترف بها الجميع بصموده الفردي في مواجهة أنساق الجماعة.

لا تنفصل حالات الجنود الأميركيين، وهم يعترفون على أنفسهم بجرائم فظيعة لم يرتكبوها في الحرب الكورية، عن عمليات غسيل الدماغ التي مورست على العديد من الجنود، التي تفسّر عمليات عدم التصديق من قبل الكثيرين لهذه الاعترافات.

فالحقيقة التي تعترف بها ليسنج أننا جميعا تعرضنا بدرجة أو بأخرى لعملية غسيل الدماغ من قبل المجتمع الذي نحيا فيه. أبسط مثال على عمليات التزييف، هو الصور الذهنية التي شكّلت نظرتنا عن بلدان، وعندما زرناها اكتشفنا عملية غسل الدماغ التي تعرضنا لها.

عبر هذه العمليات تصبح عمليات الاستغلال لكل المعلومات التي تتوفر عن أنفسنا، في حوزة خبراء توظّفهم كل حكومات العالم تقريبا الآن لإدارة رعاياها بمكر ودهاء. وهذا الأمر صار صناعة أشبه بـ"صناعة الاستعراضات" يمارسها السياسيون وهم يطلقون حملاتهم الانتخابية، فريجان، مثلا، وصل إلى البيت الأبيض عن طريق شباك التذاكر.

من الأشياء التي تدعو إلى الأسف أن التكنولوجيا الحديثة تسير يدا في يد مع المعلومات النفسيّة الجديدة، حيث تستخدم في عملية ترويض للجنود المقدّر لهم الوجود على الخطوط الأمامية، فيعمدون على إفقادهم حساسيتهم بتعريضهم عمدا إلى درجة من الوحشية تفقدهم قدرتهم على رؤية من عليهم مهاجتمهم. الغريب كما تقول ليسنج أن هذه التكنولوجيا وتخص التلفزيون والسينما، تقوم بهذه العملية عينها، فتعرضنا لدرجة من القسوة الوحشية من كل نوع حتى نفقد حساسيتنا على نحو عرضي.

وعبر هذا الاستنتاج تفسر سبب فقدنا القدرة على الاحتجاج رغم رؤيتنا للأهوال الجارية في أنحاء العالم. فقد فقدنا حساسيتنا تماما مثل أولئك الجنود الذين حُولوا عمدا إلى قساة.

الكتاب في مجمله يقدّم إجابات عن أسئلة تلحّ في واقعنا المعاصر، عن إخفاق الثورات، وعن تأييد بعض الأفراد للحرس القديم والثورات المضادة، وعدم رغبتهم في التغيير، عن العنف المفرط في تعاملاتنا وسلوكياتنا مع بعضنا البعض.

الرواية البوليسية: متغيراتها ومستجداتها

حميد سعيد
كاتب عراقي

ليست هي المرة الأولى التي أكتب فيها عن الرواية البوليسية، وأذكر أنني في آخر ما كتبت عن هذا الموضوع، مقالة بعنوان "عن الرواية البوليسية" ومن ثم ضممتها إلى ما تضمن كتابي "تطفل على السرد" من موضوعات وقضايا تتعلق بالسرد، وقد طرحت في ختام المقالة المذكورة سؤالا، يمكن إجماله بالآتي: هل الترفع الثقافي والنقدي عن الرواية البوليسية في الثقافة العربية المعاصرة، وهو موقف موروث أو منقول عن الثقافة الغربية، يتطلب إعادة نظر، في ضوء المستجدات التي عرفتها الرواية البوليسية في العقود الأخيرة، سواء على صعيد الكتابة أم على صعيد التلقي والنشر والتوزيع والقراءات النقدية، وأن تشمل إعادة النظر هذه، قراءات جديدة ومختلفة لكتاب قدامى، مثل أجاثا كريستي وآرثر كونان دويل وأيان فيلمنج وغيرهم؟

لقد نشأنا في محيط ثقافي ينظر إلى الرواية البوليسية نظرة دونية، لذا كان النقاد وما زالوا، في حالة عزوف عن تناولها والحديث عنها ورصد تحولاتها وكشف مكوناتها، وكان كثير من المثقفين يحيطون قراءاتهم منها بالكتمان، إلا في حالات نادرة واستثنائية، وقد سبق لي أن أشرت إلى الشاعر العراقي الراحل حسين مردان، كحالة يمكن أن أعدها استثنائية، حيث كان يعلن عن إعجابه ببعض ما يقرأ منها، واقتصر هذا الإعجاب على أحاديثه مع المقربين من أصدقائه، وبحدود ما اطلعت عليه، لم أر الإفصاح عن هذا الإعجاب في كتاباته.

كما سمعت من أكثر من صديق ممن عرفوا الروائي المغربي محمد شكري قبل أن يتعرف على الكاتب الأميركي بول بولز، ويدخل مخاض الأدب والكتابة، أنه كان مولعا بقراءة الحكايات الشعبية والروايات البوليسية، غير أنني لم أسمع منه ما يؤكد هذا الذي سمعته، وأتوقع أن عزوفه عن هذا الحديث، كان يقصد منه كما فعل دائما، رسم شخصيته كما يرى لا كما هي في الحقيقة.

إن الموقف الذي أشرت إليه، هو السبب الأهم في ما أرى، في عدم ظهور رواية بوليسية في الأدب العربي المعاصر، تضاف إلى هذا السبب، أسباب أخرى، يتقدمها العامل الاجتماعي، لذا فإن كتابة رواية بوليسية عربية في العقود الماضية لم تتجاوز محاولات هامشية، ظلت في حدود مسلسلات صحافية.

إن هذا الموقف من الرواية البوليسية في حياتنا الثقافية، رغم أنها واسعة التوزيع واستقطاب القراء، جعل الذين حاولوا التقليل من أهمية تحفة ديستوفسكي "الجريمة والعقاب" يصفونها بأنها رواية بوليسية، وهي وإن اقتربت من هذا العالم الروائي، لكن هذا الاقتراب لم يبعدها عن موقعها المتقدم والمتميز بين أعمال ديستوفسكي الروائية:

إن هذه النظرة الدونية إلى الرواية البوليسية، وكما أشرت إلى ذلك من قبل، ورثها الوسط الثقافي العربي عن مصدرها الغربي، حيث كان الغربيون ينظرون إليها على أنها من الأدب الشعبي، وكانت مؤسسات النشر الكبرى تعزف عن تبنيها ونشرها، كما أن توزيعها لم يتجاوز الأكشاك في المناطق الشعبية وفي المطارات ومحطات السكك الحديد أو مراكز النقل البري.

غير أن هذا الموقف بدأ يتغير منذ النصف الثاني من القرن العشرين وصارت دور نشر كبرى تختص بسلاسل منها، وعلى سبيل المثال صار معروفا أن السلسلة السوداء التي تنشرها دار غاليمار هي الأكثر توزيعا بين كل سلاسلها.

لقد قرأت أخيرا ما كتبته القاصة الأردنية إنصاف قلعجي وهي تشير إلى هذا المتغير حيث تقول "لقد ازداد الاهتمام بالرواية البوليسية في الوقت الراهن كما في روايات دان براون وبخاصة 'شفرة دافنشي' وريمون شاندلر في 'النوم الكبير' وفي روايات بول أوستر 'رجل في الظلام' و'ليلة التنبؤ' و'رحلات في حجرة الكتابة' وغيرها".

لقد قرأت حوارا مع الروائي أمبرتو إيكو يقول فيه "لا يمكنني النوم إن لم أقرأ رواية بوليسية في المساء"، ولقد سبق لي أن كتبت متسائلا "إنْ كان نجيب محفوظ بكل ما توفر عليه من حساسية فنية وقدرة على رصد متغيرات الرواية في العالم، قد أدرك هذا المتغير من الرواية البوليسية، فما فاته أن يقترب منها، حين كتب روايته 'اللص والكلاب'؟".

ومن دلائل هذا التحول هو دخول روايات سيمنيون سلسلة الأبيلاد الشهيرة إلى جانب أهم النتاج الروائي الكلاسيكي العالمي، ذلك أن أعماله تجمع بين الأصول الشعبية للرواية البوليسية ومستجدات الرواية المعاصرة.

> النظرة الدونية إلى الرواية البوليسية ورثها الوسط الثقافي العربي عن مصدرها الغربي لكن الأمر يتغير الآن مع التغيرات الاجتماعية

إن روائيين مثل فريد فايمان وماري كلارك وباتريسياكورونيل ومانويل مونتالبان، وهم من كتاب الرواية البوليسية، إلا أنهم يعدون الآن في مقدمة كتاب الرواية في بلدانهم ويتقدمون على أقرانهم في أرقام توزيع رواياتهم، وليس من قبيل المصادفة أن تكون روايات حديثة نالت من الشهرة مما جعلها في مقدمة الإنتاج العالمي شهرة وتوزيعا، قد كتبت بتقنيات الرواية البوليسية في لغتها وفي ابتكار الشخصيات المثيرة وتحريكها في أجواء غامضة ومتوترة، حيث الحبكات الملغزة في أحداثها، مثل رواية "اسم الوردة" لإيكو و"شفرة دافنشي" لدان براون وإلى حد ما رواية "كافكا على الشاطئ" للروائي الياباني هاروكيموراكامي، وإن رواية "اللبن الحلو والمر" للصومالي نور الدين فرح، التي حققت حضورا وانتشارا كبيرين، قرأت فيها الباحثة ماري تريز عبدالمسيح، ما يشبه الرواية البوليسية عبر عملية تقصي الحقائق التي يقوم بها "لوبان" والتي أدت إلى وفاة أخيه التوأم "سوبان".

إن موضوع المتغيرات والمستجدات في الرواية البوليسية، صار كثير الحضور في كتابات النقاد والمبدعين، وما أذكره أن السؤال الذي طرحته في مقالي الذي أشرت إليه، وأعدته في مفتتح مقالتي هذه، انفتح على حوارات كثيرة أذكر منها ما قاله الروائي العراقي عواد علي: "إن متغيرات الرواية البوليسية مرتبطة بالمتغيرات التي طرأت على الحياة، فعصرنا ليس عصر أجاثا كريستي وإيان فيلمنج، حيث اتسمت رواياتهما بالغموض ومطاردة المجرمين والتحقيقات الممتعة، بحثا عن ألغاز الجرائم، فالروايات الحديثة ذات المنحى البوليسي، اتخذت أكثر من مسار، كما في روايات ستيفن كنغ ودان براون".

أما القاصة السورية فاطمة نداف، فقد كتبت إلي، تناقش بعض ما جاء في مقالتي، مركزة على غياب الرواية البوليسية في أدبنا المعاصر، معللة ذلك "بأن المدينة العربية لم تكن مؤهلة لإنتاج واقع بوليسي، لهذا أخذت حيزا ضيقا، وبخاصة في ما يتعلق بالوضع الاجتماعي وتوظيفه في الحياة المركبة وما تفرزه من حالات، ترقى إلى الجريمة".